الادب العربي

قديمهُ وحديثهُ

جرى الانسان منذ وجودهِ الى الآن على سنّة النشوء والارتقاء . ولم تكن احكامها مقصورةً عليهِ بنفسهِ بل تناولت جميع أعمالهِ التي تدرّجت مثلهُ من السذاجة والبساطة الى التأنُّق والتناسق ومن الحقارة والسخافة الى اتقان يدهش العقول ويحيّر الافكار . ومهما يشتد الفرق بين الانسان في العصور الاولى والانسان في الوقت الحاضر من حيث الارتقاء العقليّ والادبيّ فهو ليس بأعظم من الفرق بين أحواله في ذلك الزمان وأحوالهِ الآن . أنظر فيما استخدمهُ حينئذٍ لمسكنهِ وملبسهِ وطعامهِ وشرابهِ وعبور المياه الطامية وجوب المسالك المتعادية وما يستخدمهُ لها في هذه الايام تجد بينهما فرقاً يصعب عليك وصفهُ إنْ لم يتعذّر تصوّرهُ . فقد تحوّلت مساكنهُ من بطون الكهوف والمغاور الى صروح شامخة وقصور باذخة وملابسهُ من ستر العورة بلحاء الشجر وجلد الحيوان الى ابهى المطارف المنسوجة من أغلى البوص والخزّ وأنفس الدمقس والديباج وطعامهُ من التبلّغ بخشاش الارض وبقولها الى الاستمتاع بألذّ طعام واشهى شراب . وعبورهُ الانهر على جذع شجرة غليظ يركبهُ ويدفعهُ بتحريك رجليهِ الى اجتياز اكبر الانهر واوسع البحار على بواخر تزدري اللجج وتسخر بهياجها وتلاطم امواجها . وتحوّل ضربهُ في عرض البرّ إما رجلان حافياً واما على ظهر راحلة يبريها جوب الاغوار والانجاد ووصل التأويب بالآساد الى ركوب قُطُر الحديد التي لشدّة اسراعها في السير تردّ صدور الارض على الاعجاز وتطوي البيد طيّ السجل حفيفةً لا على سبيل المجاز . وماذا اقول عن السيارات التي تسابق الرياح وعن سوابح الهواء الناشبةِ في عنانهِ تشب النيازك قاطعة اجواز الجو بسرعة تدهش العقول وتحقق ماكان يُروَى في الاساطير عن بساط الريح

فالفرق بين ماضي هذه الاشياء وحاضرها عظيم في مقدارهِ وعجيبٌ في نوعهِ . والعامل فيها منذ بدء الخليقة الى الآن ومن الآن الى نهاية العالم انما هو العامل في الانسان نفسهِ اي النشوء والتحول . فقد بلغ الانسان من رقي قواهُ العقليّة والادبيّة

مبلغاً مكّنهُ من الإمعان في كشف المجهولات وفتح خزائن الطبيعة واكتناه ما فيها من اسرار القوى والحقائق وبها تذرّع الى المضيّ في سبل الاختراع والاستنباط جارياً فيها هو نفسهُ وجميع معايشهِ وسائر الامور المتعلقة بهِ على سنّة النشوء والتحوّل

اذن كل طريق جديد نراهُ بعيوننا ونلمسهُ بايدينا ونسمعهُ بآذاننا انما هو قديم العهد وقد تغير مترقياً من حال الى حال . فالقول بثبوت الاشياء ثبوتاً مطلقاً — بلا اقلّ تغير — محال كالقول باضمحلالها اي فنائها . وكأنني بسليمان الحكيم رأى الناس في غفلة عن هذه الحقيقة فنبّههم اليها في كتابهِ سفر الجامعة بقولهِ « ليس تحت الشمس شيء جديد »

ومن حسن حظ الحضارة والعمران ان يولع الانسان بالاستطراف والاستحداث اي ان يعمد لكل قديم من الآراء والافكار والعلوم والاعمال فيتمهّد خللها بالاصلاح والترميم ويعالج عوجها بالتعديل والتقويم ويزيد عليها او يضيف اليها ما يكسب سقيمها صحةً ودميمها جمالاً ويجلوها كلها في حلل الاتقان والتحسين وعليها مسحة من طلاء الجديد وقديماً قالوا « لكل جديد طلاوة »

هذا كلهُ بهيج وصالح ومفيد . بل هو من اوجب الامور على كلّ أمّة تروم ان تجاري غيرها في مضمار التقدّم والنجاح . ولكن يحسن بطلاب التجديد وعمالهِ ان يحرصوا على جمال عملهم فلا يشوّههُ ما يبدونهُ من التعريض عن سبقهم فيهِ . تلك خلّة لا ارضاها لهم ولا أحسبهم يرضونها لم لأنفسهم . وقد شاعت على الخصوص بين بعض أدبائنا الذين نراهم يحاولون السير بالادب العربي على سنة النشوء والتحول شأن غيره من العلوم والفنون فتشكر سعيهم واكنا نجدهم في الوقت نفسهِ يحملون على جهابذة الأدب الغابرين فيغمطونهم ويبخسونهم حقوقهم وينضون من اقدارهم فيرمونهم بالعجز والتقصير ويحكمون على عقولهم بالجمود والخمود وعلى قرائحهم بالعقم والجمود . وحجتهم في ذلك ان القدماء لم يبلغوا بالأدب العربي الدرجة التي وصل اليها الأدب الاوربي وانهم اقتصروا فيهِ على المحسنات اللفظية وأهملوا التوسع والابتكار في المعاني ودانوا لسلطان القواعد والقوانين الموضوعة لعلوم اللغة ولم يحاولوا تحطيم قيودها

وفي دفاعي عنهم لا احاول ادعاء العصمة لهم وهم انفسهم انكروها وتبرأوا منها ولكني أقول ان خدمتهم للأدب العربي كانت أعظم جداً مما يستطيعهُ احد منا

كائناً من كان لو عاش في أيامهم وعانى بعض ما عانوه من مشقات التنقير والتنقيب في اثناء التصنيف والتأليف وليس لا كبر عالم بينهم ما لأصغر مبتدىء عندنا من وسائل لنشر العلوم والمعارف . نحن الآن في عصر راجت فيه سوق العلم ونفقت بضاعتهُ وعم الاقبال عليها . وعندنا من وسائط تحصيل العلوم واللغات ما لا يحصى كالمدارس على انواعها والمطابع والصحف والمجلات والأندية والجمعيات وغيرها مما لم يكن له عند الأقدمين أقل أثر ولا شبه خبر

يجمل بالولد ان يفوق أباهُ في العقل والفضل وبالتلميذ ان يعلو استاذهُ في العلم والأدب اذا توافر لهما من اسباب التقدم والارتقاء ما لم يتيسر معشارهُ للوالد والاستاذ ولكن يقبح قبحاً شديداً بالولد ان يعير اباهُ عجزهُ وبالتلميذ ان يعيب على استاذه تقصيرهُ

يتفق لبعض شبابنا ان يتضلعوا من معرفة احدى اللغات الأجنبية — الانكليزية او الفرنسوية أو غيرها ويستوفوا قسطهم من التعمق في ادبها فيروقهم بحكم التمرس به والمزاولة لهُ ثم يدرسون الأدب العربي — ولنسمّهِ الأدب القديم — فيجدونهُ مخالفاً لأدب اللغة الاجنبية التي تعلموها فينكرون هذه المخالفة ويعدونها ضعفاً او قصوراً من جانب الأدب العربي فيتنقصونهُ ويطعنون في ازدرائهِ والغض من قدره . ولكن كونهُ مخالفاً لذوقهم المُشرَب حب الأدب الافرنجي ليس بدليل على كونهِ مخالفاً لذوق غيرهم من ابناء اللغة العربية الذين لم يتأدبوا بالأدب الاوربي . وهبهُ كان مخالفاً لذوق كل ناطق بالضاد في هذه الايام فليس من العدل ان نزدريهُ ونحتقر بواضيه . لأنهم انما وضعوه لأنفسهم وكان من كل وجه وفق اذواقهم وأمالهم

لنا اذا شئنا ان نصدف عنهُ ولا نميل اليه . ولنا ان نجهر برأينا هذا بل لنا اذا شئنا — واستطعنا — أن نعالج الادب العربي بما يرقيهِ ويزيد صلاحيتهُ وموافقتهُ لمقتضى احوالنا . ولكن ليس لنا أن نتنقص واضعيهِ ونحتقر عملهم وكلهم من نخبة العلماء الاعلام وهم جميعهم احق الناس بأن يظل ذكرهم مقروناً بالاحترام والاكرام

واذا كان بعض أدبائنا يريدون بالادب العربي الجديد الانفلات من قيود اللغة وقواعدها والكتابة بأساليب سقيمة الالفاظ سخيفة التراكيب فليطلقوا على ادبهم الجديد فوضى الاقلام ويقولوا على الادب العربي السلام

القاهرة اسعد خليل داغر